

مهند الناصري

ذاكرة المدينة الحلم

ما الذي يمكن للفنان ان يعمل عندما تنأى المسافات به عن مدينته ويستحيل حلمه بها الى ترقب دائم وذاكرة مستنفزة وتصبح واقع متحقق في ذاكرته ليستعيد بناءه في نتاجه الفني بصيرورة أخرى هي فيما يمكن ان تشبه تحليق روجي في فضاء يحتوي كل العلامات المدهشة والمثيرة، فالانتقال من عالم متحقق يستحيل العودة اليه في الواقع وإعادة بنيته الكاملة الى واقع افتراضي يتحقق عبر فضاء افتراضي اخر تدعمه لغة العصر الذي نعيشه هو عمل مخيال قادر على الإضافة المبدعة. اننا على ما يبدو نعيش ذاكرتنا التي تبتكر لنا وتعيد انتاج بنيتنا وتضع لنا مفاتيح المغلق فيها فلا شيء يمكن ان يتعرض للإزاحة فيها الا ان فعل الانتقاء هو المهيمن دوماً، انتقاء ما يدعم الحلم، الحلم بمدينة لا تشبهها المدن الاخرى أولاً ولا يمكن ان تدعنا نتقبلها ببسر ومدن لا تملك مواصفاتها واسرارها ثانية.

مهند الناصري المعماري الذي رحل بأدوات المعمار الى سياق مجاور هو الرسم استطاع ان يقدم ما هو مثير بصريا كصفة أولى من صفات ما انتجه وسيعرضه لاحقا، ومكمن الاثارة البصرية هو في اعادته رسم مشهد المدينة التي نفتقد لعمل على ترميم اندثارها وشيد فضاءاتها بذاكرة متقدمة هي ذاكرة المعماري الذي يعرف خباياها مستعينا بعمل الرسام المتمكن من ادواته وكما ان المدينة أصبحت حلما فقد شيدها الناصري من جديد بلمسات تقترب من الحلم وتحلق بعيدا بها.

فما الذي عمله الفنان ليتمكنه من اثارة متلقي اعماله بصريا؟

هنا يكون السؤال ضروريا لان استنفار الذاكرة ليس هو الهدف المباشر لما انتجه الناصري وانما ذلك يسير في طرق متوازيا تقترب جدا من بعضها وتقود لنفس الهدف ومنها انه اشتغل على استقزاز حواسنا واستثمار ذلك في تهيئة مشاعرنا إزاء الواقع الجديد الذي قدمه لنا ، ولا بد من الدخول الى عالم لوحاته ليتمكن معرفة كيف استطاع الناصري ان يلهمنا العيش في واقع المدينة الحلم وكيف استطاع ان يجذب اليه حواسنا ومشاعرنا ، ان إعادة السؤال السابق يدعو الى البدء بخطوات لتشغيل الذاكرة المتهيئة أصلا لذلك ، فذاكرة الناصري انتقت مشاهد من مدينته نشترك كلنا في كونها العلامات التي تشكل بنية الجمال فيها وتطبعها بها ، فمشاهد مثل النصب والساحات وحدائقها والمباني الشهيرة فيها وتاريخها هو ما استله الناصري منها وهي بكل ما تكتنزه من كون علامي تصبح أداة لأثارة الحكايات التي تكاد ان تندثر وترمم املا حتى لو اصبح بعيدا عنا الا انه ترميم لصورة ستعود في مستقبل ات ، ان انتقاء تلك الصور وبكل التفاصيل هو عمل شاق أولاً وذكي ومعرفة من الفنان الذي حرك أصابعه لفرزها ، انه ينتقي ويعيد تأييث المشهد ليكون شاهدا ، فالمشاهد للوحاته سيقف امامها مرتين مرة تشتغل حواسه فيها لأدراك التكنيك اللوني الذي استخدمه الفنان في اظهار تفاصيل المشاهد فيها والحركة التي لون بها تلك المشاهد وستأخذ بكل تأكيد كلية المشهد الا انه سيعود لسرد حكاياته التي تُشبع عاطفة متأججة أصلا لمدينة تسكن الروح بدء من التفاصيل المنتقاة والتي تشكل وحدات التذكر وصولا الى عوالم شكلت كل تفاصيل حياتنا.

ان ما أدهشني في اعمال الناصري هو في قدرته على استحضر مهارة الرسام واستعارة ادواته افتراضيا وهو مهمة ليست بالهينة وتحتاج الى مران واسع ودربة والى عين تتحسس مواطن الاستقرار في بنية التكوين، هي عين المعماري ولكن بشفافية الرسام المعاصر الذي ينأى بها عن التوثيق ويزيح فعل الفوتوغراف مقتربا بها الى الرسم المائي ويمكن ملاحظة ذلك في الشفافية التي افترضها وعمل بها والتي تحيلك الى ضربات فرشاة ماهرة.

لعل ما احسبه نجاحا للفنان هو في انه يعيش عصره وينتقل فيه ببسر فاشتغل في حدود عالمه الافتراضي الذي نعيش تفاصيله اليومية من هيمنة الصورة ووسائط الاتصال الافتراضية وانتقالاته تلك جاءت بفعل مرن، انتقاله لا تكاد تشعر بها فهي في ذات السياق الذي نتحرك فيه ونعيشه واحسب ان الناصري كان يدرك زاوية الانتقال تلك ويحسب مدى اقترابها من متلقيه، فهو اذ يقدم تجربته تلك فإنه يكاد يدرك مدى قربها منه أولا ومن تدفق الصور في ذاكرته وكذلك من مدى استفزازها لذاكرة متلقيه ثانية ن والمتلقي يعرف تمام ان الفنان انشأ مدينته في عالم غير الذي كان ونقلها الى الواقع ولكن هيا لها كل الأجواء التي تبقى يعيش حلما كما يعيشه يوميا ولكن الناصري أضاف له افتراضا واقعي يمكن تلمسه عبر اللوحات التي يعلقها على الجدار .
المتلقي لأعمال مهندس الناصري الجديدة لا يمكنه إزاحة تأثير المشاهدة عليه بسهولة لأنه لن يشاهد اعمالا عابرة ولك اعمالا تحفر بعيدا في ذاكرته وتجعل منها منتجا ومشاركا للفنان في ما أراد.

كان الناصري لمأحا في اختياراته لمفاصل المدينة فرسمها مدركا التاريخ الذي يتجول فيه وينمو في اجزائها، فأنتقى الفنان مفاصل تاريخية شكلتها وطبعتها بطابعها، فأن مخيال الفنان اقترب كثيرا من روح المدينة وقرأها بتمعن وهو ما شكل محورا لأعماله جعلته ينجح في استفزاز بصر المتلقي وعواطفه ويجعله قادرا على التحليق بعيدا عما هو فيه، نجح الناصري في انتاج اعمالا ستكون بدءاً للتواصل ومفتتحاً لذلك.
لقد ازاح الناصري بعمله هذا حواجزاً مشكّلة في تذوقنا للأعمال الفنية باعتبارها منتجا يدويا وجعلها تقترب لإنتاج الرؤية ومشاريع فنية قادرة على جذب المتلقي وتفعيل تلقيه معها فالفنان الذي يعيش عصره فلا يمكنه الا التفاعل مع الماكنة الكبيرة التي تحاصرنا بنتائجها السريع وقدرتها التكنولوجية الهائلة ، فماتضخه الوسائل الالكترونية يوميا اصبح جزءاً فاعلاً في حياتنا واستطاع التأثير فيها بل يكاد ان يستحوذ على تفاصيلها، ومهندس الناصري يعيش عصره.

كريم سعدون
كوثمبورج/ السويد